شعرية عدول الضمائر في آيات من القرآن الكريم

أ.م.د صالح مجيد علي الخزرجي
جامعة وارث الأنبياء -كلية الإدارة والإقتصاد
Alkhazrajisaleh6@gmail.com

ملخص البحث

علوم اللغة العربية مَدينة لعلوم القرآن الكريم المتجذرة والمتنوعة بالفرقان .. فهو السبب الرئيس لولادة علوم اللغة ونموها وتنوعها وتطورها .. ومن هذه العلوم: النحو العربي الذي من موضوعاته الضمائر .. وهذا البحث يستمد أهميته من كونه أحد مظاهر انزياح اللغة، وهو عدول الضمائر عن مقتضى الظاهر لأغراض سامية بوصفه جزءًا يسيرًا من الاعجاز القرآني العظيم.

وقد قسّم البحث على: تمهيد بعنوان في الشعرية والعدول، ومحاور ثلاثة، تناول الأول بعض أوجه العدول في آيات القرآن الكريم لغير الضمائر، فيما نظر الثاني وهو أساس البحث في شعرية عدول الضمائر لآيات معينة، أمّا المحور الثالث فكان موسومًا بـ (وضع الاسم الظاهر موضع المضمر).

كلمات مفتاحية: الشعرية، العدول، الإنزياح، الضمائر

Abstract

The sciences of the Arabic language are indebted to the sciences of the Holy Qur'an, which are rooted and diverse in the Furqan. It is the main reason for the birth, growth, diversity and development of the sciences of language. Among these sciences is Arabic grammar, whose subjects include pronouns. This research derives its importance from the fact that it is one of the manifestations of the shift of the language, which is the departure of pronouns from Al-Zahir is intended for lofty purposes, as it is a small part of the great Qur'anic miracle.

The research was divided into: an introduction entitled "On Poetics and Departure," and three axes. The first dealt with some aspects of derogation in verses of the Holy Qur'an for things other than pronouns, while the second looked at, which is the basis of the research, the poetics of derogation of pronouns for specific verses. As for the third axis, it was labeled (Placing the apparent noun in the place of implied).

١. المقدمة (Introduction): في الشعرية والعدول

١-١ أولًا: في الشعرية:

- لغةً: هي مصطلح مشتق من لفظ الشعر، فالجذر اللغوي له: (ش، ع، ر) أضيفت لـه اللاحقـة (يـة) فهو مصدر صناعي بشرط الّا يعرب نعتًا، فالشعر "منظوم القول غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية"(ابن منظور،١٩٨١: ٢٢٧٣). فالشعرية معجميًا تتعلق بالعلم والفطنة ...
- أمّا اصطلاحًا: فهي تدرس الخطاب الأدبي وتبحث عن قيمه الفنية والجمالية بما تميّزه عن الكلام العادي، فالشعرية هي محاولة معرفة (قوانين الابداع الفني) (نصيف التكريتي،١٩٩٠: ٣). ومن الناحية التأريخية فإنَّ أول كتاب وصل عن (الشعرية) هو كتاب أرسطو (poetics).

وهو لم يتناول فيه الشعر الغنائي، وإنما تناول التمثيل (المحاكاة)، فهو كتاب في التمثيل وليس في نظرية الأدب (تودورف،١٩٩٠: ١٢). وتأسيسًا على ما تقدم فالشعرية لا تختص بالشعر فحسب، فالمصطلح ليس مأخوذًا بالضرورة من لفظة الشعر بمعنى النظم الملتزم بالوزن والقافية أو لم يلتزم بأحدهما، وإنما هي الكشف عن قوانين الإبداع، لعلَّ النقاد العرب قبل الجرجاني (ت٤٤١هـ - ٤٧١م) يرجعون (الشعرية) الى أصل واحد، هو الشعر، مدار بحوثهم في مؤلفاتهم النقدية، فنجد (قدامة بن جعفر) في كتابه (نقد الشعر) يضع حدودًا للشعر، و (ابن طباطبا)، في كتابه (عيار الشعر) ينظر في صناعة الشعر، وهكذا نقاد عرب قدماء آخرون، لكنَّ (الجرجاني) يرى الشعرية الكشف عن قوانين الابداع الأدبي في النظم (شعرًا كان أم نظمًا) حيث انه "لابُدّ من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص وعلى نسق المعاني في النفس" (الجرجاني، د.ت: ٤١٦)، وهو لا يرى الوزن شرطًا في النظم "وليس به، كان الكلام كلامًا، ولا به كان الكلام خيرًا من كلام" (الجرجاني، د.ت: ٤١٦). وكذلك فإنَّ الدخول في دائرة الشعرية يقتضي ابتعاد المبدع عن البنيات النحوية الجاهزة الى مخالفة الأداء لمقتضى الظاهر، انطلاقًا من مفهوم النظم، عند الجرجاني، إذ قال: "ولو كان القصد بالنظم الى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حَذْوها، لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه"(الجرجاني، د.ت: ٥١).

إذن هي ثنائية اللفظ والمعنى كيف يمتزجان لينتجا أداءً فنيًا جماليًا بدلالية منتجة، مع عدم التقيّد بمعيارية اللغة، فالنظم ليس في الألفاظ فحسب، ولا يتوخّى المعاني فحسب، وانّما بالتوافق بينهما سوية عبر التأكيد على وحدة بنية الكلام، ورفض الفصل بينهما (اللفظ والمعنى). كلّ ذلك على قاعدة الاختلاف بين اللغة المعيارية، واللغة الشعرية أي بتوخي المجاز الذي فيه سر جمال اللغة وابداعها، وهو ما يسمّى بـ (معنى المعنى)، ومثلها تهتم نظرية اللغة الشعرية المعاصرة، بوجود الاختلاف بين اللغة المعيارية واللغة الشعرية، اهتم الجرجاني متقصّيًا وجوه الاختلاف بينهما من جهة، ودرجة التفاضل في اللغة الشعرية نفسها من جهة ثانية"(طراد الكبيسي، د.ت :٧٣) .

يبدو ان الترجمة العربية للمصطلح الغربي (Potics) تعاني من ازمة بسبب اختلاف الفهم في معناه، فضلًا عن اختلاف المعرفة بالترجمة العلمية الاصطلاحية الدقيقة، لذا تعددت ترجمات هذا المصطلح من (الشاعرية) الى (علم نظرية الادب)، و (الانشائية)، (البويطيقا)، و(البوتيك)، و (نظرية الشعر)، و (فن الشعر)، و (فن النظم)، و (الفن الابداعي)، و (علم الادب)، وقد رأى (د. احمد مطلوب) ان الترجمة الملائمة للمصطلح الغربي (Potics) هو (الشعرية) بوصفها مصدرًا صناعيًا، وتناول ذلك بمحورين: يمثل الاول: (فن الشعر واصوله التي تتبع للوصول الى شعر يدل على شاعرية ذات تميز، وحضور) (احمد مطلوب،١٩٨٩: ٤٥) ، أما الثاني فيمثل: "الطاقة المتفجرة في الكلام المتميز بقدرته على الانزياح"(احمد مطلوب،١٩٨٩: ٤٦).

ونرى د. حسن ناظم ينقد هذين المحورين بإرجاعهما الى نظرة (جان كوهين) للشعرية " بوصفهما علمًا موضوعه الشعر تندرج ضمن الاتجاه الاول، والشعرية بوصفها (انزياحًا) تندرج ضمن الاتجاه الثاني، وكلا المفهومين عائدان لجان كوهين"(حسن ناظم، ١٩٩٤ :١٦).

ويخلص الى عدم وجود معيار دقيق يصف شعرية (كوهين)، الا ان الاخير يربط الشعرية بالشعر فحسب، بينما د. احمد مطلوب بمحوره الثاني لا يرى ذلك، وانما يثرى الشعرية –حسب فهم الباحث- الكلام المتميز بقدرته على الانزياح والتفرد، اي الكلام الادبي وان لم يكن شعرًا.

١-٢ ثانيًا: في العدول:

العدول مصطلح نقدي قديم تضمنه منهج عبد القادر الجرجاني النقدي فهو الخروج عن الانماط الكلامية والفنية المعيارية، اي هو خروج عن قوالب اللغة الجامدة بما يؤدي الى تطوير الاساليب اللغوية بما يتساوق مع توجه المبدع ليؤدي الى قيمة جمالية وفنية ودلالية دون التجاوز على الصحة النحوية كما ورد في (نظرية النظم) للجرجاني في (دلائل الاعجاز)، فقال: "لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم"(الجرجاني، د.ت: ٣٧). لان عدم مراعاة الصحة النحوية والعدول عنها يخرج الكلام عن الفصاحة، فالعدول هو الميل من صياغة نمطية مألوفة الى صياغة اخرى لغرض بلاغي وتواردت مصطلحات متعددة لمصطلح العدول حسب قناعات مطلقيها المحدثين مثل (الالتفات) و (الانزياح) وغيرها كثير ربما تصل الى خمسة عشر مصطلحًا للعدول مستعملًا في النقد المعاصر(عبدالسلام المسدي،١٩٨٣: ٩٩-١٠٠).

وقد عرفه النقاد المحدثون بتعريفات مختلفة تساوقًا مع المصطلحات المختلفة –آنفة الذكر-، ومنها: "مجاوزة السنن المألوفة بين الناس في محاوراتهم، وضروب معاملاتهم، لتحقيق سمة جمالية في القول تُمتع القارئ، وتطرب السامع، وبها يصير نصًا ادبيًا"(عبد الموجود متولي، د.ت: ٥).

تأسيسًا على ذلك يمكن –ربما- وصف اللغة الادبية برمتها انزياحًا عن اللغة العادية المباشرة، ليكون المغزى البلاغي من العدول في الخطاب النقدي هو: "مخالفة الكلام لصياغته اللغوية الاصلية المفترضة لتحقيق قيمة جمالية او دلالة بلاغية""(عبد الموجود متولي، د.ت: ٥) ، ويأخذ العدول في النصوص الادبية اوجهًا مختلفة، منها: العدول بالعالم الى منزلة الجاهل، ومنها المجاز العقلي بوصفه "اسناد الفعل او معناه الى غير ما هو له بتأوّل"(القزويني،١٩٩٨: ٥٦/١). فالمعنى المباشر الحقيقي هو تناول الفعل بما وُضع له اصلًا أما اذا استعمل الفعل بغير ذلك فهو المجاز العقلي وذلك العدول عن الاصل.

٢. المحور الأول: بعض أوجه العدول في آيات من القرآن الكريم لغير الضمائر:

العدول له أوجه متعددة منها:

١- تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر: العدول بعامة إنما يأتي لأغراض بلاغية تبرر خروج الكلام على مقتضى الظاهر: "فينزّل غير السائل منزلة السائل اذا قدّم له ما يلوح له بحكم الخبر، فيستشرف له المتردد الطالب، ومثاله قوله تعالى: (... وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) (سورة هود: من الآية: ٣٧) ، وقوله تعالى: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ...)(سورة يوسف: الآية: ٥٣).

٢- ما يتعلق بالتوكيد: من صور العدول في القرآن الكريم ما يتعلق بالتوكيد، فمن المعروف ان التوكيد يستعمله المتكلم مراعاة لحال المخاطب يحتاجه او لا يحتاجه، لكن عُدِل عن ذلك المعنى الى استخدام التوكيد مراعاة لحال المتكلم نفسه، من ذلك ما جاء في الآية الكريمة: (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ...)(سورة البقرة: الآية: ٥٢) ، المنافقون في هذه الآية لم يستعملوا التوكيد مع المؤمنين ولكنهم استعملوه بقولهم (إنّا) بمخاطبة قومهم اليهود

لأنهم لا يستطيعون التوكيد مع المؤمنين من الناحية النفسية لعدم توافقه مع عقائدهم، اذ لا يقوون على التأكيد بما بلا يؤمنون، لكنهم مع قومهم اختلفت الحالة فأكدوا لثباتهم على اليهودية وارتياحهم بالتكلم عن ذلك خلافًا للحالة مع المؤمنين لأن الكلام معهم لم يصدر عن رغبة واعتقاد (البلاغة القرآنية، د.ت :٢٤٢). وعلى هذا النحو نلحظ الآية الكريمة: (... قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ...) (سورة آل عمران: آية: ٣٦) السيدة مريم –عليها السلام- تخاطب الخالق – عز وجل- وهو طبعًا عالم كل شيء لا يحتاج الى توكيد، لكنه تعبير عن حالتها النفسية اذ كانت تتوق الى ولادة (ذكر) حتى صار الحكم عندها كالحقيقة، ففوجئت عندما وضعت انثى فأرادت ان تروّض نفسها على ذلك فزادت في بناء الجملة ما يجعلها تتلاءم مع هذا الغرض الجديد، ويزخر القرآن الكريم بصور العدول الكثيرة مثل قوله تعالى: (... وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا...) (سورة الانفال: آية: ٢١) فنسبت زيادة الايمان الى الآيات وهي كلام الله تعالى، وكذلك قوله تعالى: (... يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ...) (سورة القصص: آية: ٤)، فقد نُسب الفعل الى فرعون، مع ان الفاعل الحقيقي غيره لكونه الآمر به (القزويني، ١٩٩٨: ٦٥/١).

٣- وكذلك العدول من اسم الفاعل الى اسم المفعول، ومثاله قوله تعالى: (... جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) (سورة الاسراء: آية: ٤٥)، فالحجاب ساتر (اسم فاعل) وليس مستورًا (اسم مفعول).

٤- ومن صور العدول (الحذف)، ومثال ذلك قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ...) (سورة يونس: آية: ٢٥) فقد حُذف المفعول (المدعووين) لقصر التعميم، فالحذف جاء عدولًا لحاجة فنية تتطلب ذلك، والقرآن الكريم يعجّ بصور العدول المختلفة لأغراض متعددة.

٣. المحور الثاني: عدول الضمائر في آيات من القرآن الكريم:

إنَّ عدول الضمائر في القرآن الكريم يأخذ صورًا متعددة، منها:

١- ما يتحقق في التعريف بالضمير، فيذهب القزويني الى ان التعريف به اذا "كان بالإضمار، فأمّا لأن المقام مقام التكلم...، واما لان المقام مقام الخطاب...، واما لان المقام مقام الغيبة"(القزويني، ١٩٩٨: ٨٤/١)، (السكاكي،٢٠٠٠: ١٧٩-١٨٠). ان الاصل في ضمائر الخطاب "ان يقصد بها المعيّن، ولكنها قد تخالف هذا الاصل عندما يخاطب بها غير المعيّن، وذلك عندما ترد في الكلام دون ان يكون ثمة معين يرجع اليه الضمير"(مجلة جامعة ام القرى،١٤٢٨هـ: ٥٦٤) ومن صور ذلك قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ...) (سورة السجدة: آية:١٢)، الاسلوب للخطاب (ترى) لكن المقصود به العموم – كما يرى القزويني- فهو يشير الى ان هذا الاسلوب "اخرج في صورة الخطاب لمّا اريد العموم، للقصد الى تفظيع حالهم، وانها تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها، فلا تختص به رؤية راءٍ، بل كل من تتأتى منه الرؤية داخل هذا الخطاب""(القزويني، ١٩٩٨: ٨٤/١)، (السكاكي،٢٠٠٠: ٢٠٠) فالمجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم وهذا ما يجب ان يعلمه الجميع للتحذير والترهيب وهي دعوة للمسلمين ولمن يود ان يفهم من غير المسلمين ان حال المجرمين يوم القيامة هو بهذا المستوى من الخزي، ومع كل هذا عُدل عن هذا العموم الى الخصوص بخطاب مخاطب واحد (ترى).

وهذا الاسلوب لا يقتصر على القرآن الكريم، بل تناوله الادباء قديمًا وحديثًا، ومنهم المتنبي في قوله:

إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وقَدْ قَدَروا أَلَّا تُفارِقَهُمْ فالراحِلُونَ هُمُ

فاستعمل ضمير المفرد المخاطب (ترحلت) والمقصود كل عاقل على سبيل الموعظة والحكمة، ومثل التعريف بالضمير هناك التعريف باسم الاشارة وبالاسم الموصول وغيره.

٢- الالتفات: وهو نوع من انواع العدول يعرّفه القزويني بأنّه: " التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم، والغيبة، والخطاب) بعد التعبير عنه بطريق آخر"(القزويني،١٩٩٨: ٧٢)، بمعنى ان الكلام بدأ بأحد الطرق الثلاثة المشار اليها، ثم عدل الى طريق آخر لأغراض بلاغية. وقد تناول السكاكي هذا المعنى، ورأى ان اسرار هذا الاسلوب كثيرة جدًا لا يمكن لعلم ان يحصيها وهو يختص بلطائف معانٍ فلما تتضح الا للعلماء الكبار والبلغاء الحذّاق(السكاكي،٢٠٠٠: ٢٠٠). ثم ان الالتفات يهدف الى تطرية نشاط السامع وايقاظ اصغائه والترويح عن نفسه، كما عبر الزمخشري(الزمخشري،١٩٤٨: ١٤/١) والخطيب(الخطيب القزويني،١٩٩٨: ٧٤)، وهو ايضًا متعلق بالمتكلم نفسه، فهو قد لا يجد وسيلة للتعبير عما يتحرك في نفسه من معنى الا عبر العدول بالسياق عن ظاهره(مجلة جامعة ام القرى،١٤٢٨هـ: ٥٧١). ومن صور العدول بالالتفات في القرآن الكريم قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (سورة الفاتحة: آية: ٤)، فالعدول هنا عن ضمير الغيبة في الآيات التي سبقت هذه الآية الى ضمير الخطاب في هذه الآية، وسرّ ذلك كما يرى الامام الزمخشري انه بعد ذكر المولى –عز وجل- بتلك الصفات العظيمة: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، صار العلم متعلقًا بعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء، فتحول الخطاب من الحق المعروف بتلك الصفات من الغيبة الى الخطاب المباشر (ايّاك) ياصاحب هذه الصفات المختصة بالعبادة، لا نعبد غيرك، ولا نستعين سواك، يكون الخطاب أدلّ على العبادة له (الزمخشري،١٩٤٨: ١٣/١). وفي هذه الآية نكتة بلاغية جميلة ايضًا، وهي:

عدم استعمال ضمير الوصل متأخرًا عن الفعل مثل (نعبدك). وانما ضمير الفصل متقدمًا على الفعل (اياك نعبد) وكذا (اياك نستعين) وذلك لان العبادة مختصة بالله تعالى وحده، وكذلك الاستعانة إذا تقدّم ضمير الفصل على الفعل، وأمّا الآية التي بعدها: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) فلم يستخدم الضمير المنفصل، ولا تقدم على الفعل، لان الهداية الى الطريق الصحيح مع كونها من عند الله تعالى لكن واسطتها النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- والصالحون، فهي من الصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق، أما من يُعبد ويُستعان به فهو الله تعالى وحده، وكذلك العدول عن الغيبة الى الخطاب كما في قوله –عز وجل- : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا*لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) (سورة مريم: آية: ٨٨-٨٩)، فالفعل (اتخذ) للغيبة، والفعل (جئتم) للخطاب، وذلك كما يراه الزمخشري تنبيه لهم على عظم ما قالوه، كأنّه يخاطب قومًا حاضرين بين يديه منكرًا عليهم وموبخًا (الزمخشري،١٩٤٨: ٣٣٨/٢).

٣- ومن اوجه الزيادة المتعددة ما يخصنا في عدول الضمائر، هو تأكيد الضمير المتصل بآخر منفصل في قوله تعالى: (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) (سورة طه: آية: ٦٨)، فزيادة الضمير المنفصل (انت) بعد الضمير المتصل (الكاف) مع وجود اداة التوكيد (ان) لزيادة الاطمئنان في قلب النبي موسى –عليه السلام- ، وكذلك في قوله تعالى: (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) (سورة الاعراف: آية: ١١٥)، فجاء التأكيد بالضمير (نحن) بعد الضمير الغائب الـ (نا) في (نكون) لتأكيد رغبة السحرة في أن يكونوا هم اول من يلقي ولكنّهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم النبي موسى بمثله الى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما الضمير المستتر (نا) في نكون – والضمير البارز المنفصل (نحن) دلَّ على انهم يريدون التقدم عليه والالقاء قبله (ابن الاثير،١٩٨٤: ٢٠٤/٢).

٤- تنويع الخطاب: ومن حالات العدول تنويع الخطاب من الغائب الى المخاطب كما في الآية الكريمة: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (سورة الاعراف: آية: ١٥٨). بهذا الصدد كان الزمخشري معجبًا بهكذا اسلوب بلاغي فقال: "

فإن قلت : هلا قيل: فآمنوا بالله وبي، بعد قوله: "اني رسول الله اليكم"، قلت: عدل عن المضمر الى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي اجريت عليه: ولما في طريقة الالتفات من مزية بلاغية، وليعلم ان الذي وجب الايمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بانه النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائنا من كان انا أو غيري اظهارًا للنصفة وتفاديًا من العصبية لنفسه"(الزمخشري، ١٩٤٨: ٩٨)، ومثال آخر قوله تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) وهو خطاب لفائدة حسنة " وهي زيادة التسجيل على قائلي هذا القول بالجرأة على الله والتعرّض لسخطه وتبنيه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قومًا حاضرين بين يديه منكرًا عليهم وموبخًا لهم"(ابن الاثير،١٩٨٤: ١/ ٤١٠).

٥- العدول من مخاطبة النفس الى مخاطبة الجماعة: وذلك من حالات العدول في تنويع الخطاب ومنه ما جاء في الآية الكريمة: (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(سورة يس: آية:٢٢). فبعد ضمير المتكلم (الياء) في (ومالي) عدل الى ضمير الخطاب: "واليه ترجعون".

٦- العدول من الخطاب الى الغيبة: هذه حالة اخرى من حالات عدول الضمائر في القرآن الكريم: ومثاله قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (سورة الاعراف: آية: ١٥٩) فالخطاب في قوله: (فآمنوا بالله) ثم (ورسوله) ، ضمير الهاء للغائب ولم يقل (وبي) اذ ورد قبل ذلك : "اني رسول الله اليكم جميعًا" وذلك "لكي تجري عليه الصفات التي اجريت عليهم"... فقرر اولًا بصدر الآية : اني رسول الى الناس، ثم اخرج كلامه من الخطاب الى معرض الغيبة لغرضين: الاول منهما اجراء تلك الصفات عليه، والثاني: الخروج من تهمة التعصب.

٧- العدول من المتكلم الى المخاطب: وذلك من حالات العدول الاخرى مثل قوله تعالى: (اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ* وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (سورة يس: آية: ٢١-٢٢)، ضمير المتكلم في قوله (لا اعبد)، ثم التفت (عدل) فعبر عنه بطريقة الخطاب (واليه ترجعون)، ومقتضى الظاهر: (واليه ارجع). وكذلك قوله تعالى: (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (سورة البقرة: آية: ٩٧) ومقتضى الظاهر : (على قلبي) للدلالة على ان القرآن يعدل من حالة الى حالة اخرى لمعنى يبتغيه.

٨- العدول بالضمائر من المتكلم الى الغائب: وهذا نمط اخر من عدول القرآن بالضمائر، كما في قوله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) (سورة الكوثر: آية:١-٢) ، فالضمير (إنّا) اصلًا لجماعة المتكلمين وهنا جاء عائدًا الى لفظ الجلالة من باب التعظيم – ومقتضى الظاهر: ان يقول: (فصلِّ لنا).

٤. المحور الثالث: وضع الاسم الظاهر موضع المضمر:

١- عدول الضمائر الى الاسم الظاهر لأسباب معنوية: ومن ذلك قوله تعالى: (ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) سورة الحج: آية: ١٢)، مقتضى الظاهر ان يكتفى بالضمير، فيقال: (هو الضلال البعيد) لتقدم المرجع معنى وهو دعاء ما لا يضر وما لا ينفع لقوله تعالى: (يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)، لكنه عدل الى اسم الاشارة (ذلك) لكمال العناية بتمييز المسند اليه بسبب اختصاصه بحكم غريب. وكذلك قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ...) (سورة الاخلاص: آية: ١-٢) اذ لم يقل: (هو الصمد) وان كان ظاهر الحال يقتضي الاضمار، لتقدم المرجع، ولمنه فقال: (الله الصمد) فوضع الظاهر موضع المضمر، لان المقام يقتضي الاعتناء

بتمكين لفظ الجلالة من النفوس، وايضًا قوله: (الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ) سورة الحاقة: آية: ١-٢)، فمقتضى الظاهر ان يؤتى بالضمير، فيقال: (الحاقة ما هي) لتقدم المرجع، ولكن عدل الى الاسم الظاهر، ليتمكن في ذهن السامع تمكنًا قويًّا: لما في الاسم الظاهر من التصريح. وكذلك قوله تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ...) (سورة الاسراء: آية: ١٠٥)، ولم يقل: وبه نزل وذلك للتأكيد وهذا هو الغرض من ذكر الاسم وليس الضمير كما هو مقتضى الظاهر، وكذلك ما جاء في الآية الكريمة: (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ...) (سورة البقرة: آية: ٥٩)، جاء الاسم الظاهر مكان الضمير في قوله: (فانزلنا على الذين ظلموا)، ولم يقل: (فانزلنا عليهم) والغرض البلاغي من ذلك لزيادة التقبيح والمبالغة في الذم والتقريح، وجاءت كلمة (رجزًا) نكرة وذلك للتهويل والتفخيم. وكذلك قوله تعالى: (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (سورة الاسراء: آية ٧٨)، وضع الظاهر موضع الضمير في (اذ يرون) لإحضار الصورة في ذهن السامع. وتسجيل السبب في العذاب الشديد، وهو الظلم الفادح. وكذلك في قوله تعالى: (... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (سورة البقرة: آية: ١٩٦)، واضح اظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة في النفوس، وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

٢- حذف اسم وضمير معًا ووضع اسم آخر مكانهما: حالة بلاغية غاية في الجمال والتأثير مثل قوله تعالى: (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) (سورة آل عمران: آية: ١٥١)، النكتة البلاغية هنا: لم تقل الآية: (بئس مثواهم) فقد حُذفت (مثواهم)، وكما هو مقتضى الظاهر مثواهم يساوي الاسم مثوى والضمير هم ووضع اسم (الظالمين) وذلك للتغليظ، وللإشعار بانهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه، والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مثوى الظالمين النار، فحذفت كلمة (النار).

٣- إنابة الاسم الظاهر عن الضمير ليضيف قيمة ايقاعية الى قيمته الدلالية: ومن ذلك قوله –جلَّ وعلا- :(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ*مَلِكِ النَّاسِ*إِلَهِ النَّاسِ*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ*الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ*مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) (سورة الناس: الآيات: ١-٦) فقد وردت كلمة (الناس) اكثر من مرة، وعادة لا يكرر الاسم الظاهر في الخطاب، بل يُشار له بالضمير، فقد عُدل عن الضمير بالاسم الظاهر لأغراض بلاغية منها: (التجنيس)،كما يراها الزركشي (الزركشي، ١٩٥٦: ٧١/٣): بين كلمتي (الناس)، و (الخناس)، ثم لما يحدثه تكرار صوت (السين) من (وسوسة) تناسب جو السورة (سيد قطب، ١٩٦٣: ٩٤). ويشير البلاغيون الى امور كثيرة تخص الخروج من الاسم الظاهر الى الاسم المضمر.

٤- العدول عن طريق الاطناب: قد يظهر العدول في بناء الجملة عن طريق الاطناب فيزيد ما يمكن الاستغناء عنه، فقد يعدل عن الصيغة المتبقية قبل الزيادة الى صيغة اخرى فيها زيادة لغرض بلاغي ايضًا، أي لدلالة فنية او جمالية، وواضح في الزيادة يمكن الاستغناء عنها دون ان يختل المعنى الاصلي، وذلك مثل قوله تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) (سورة الاحزاب: آية: ٤).

معروف إنَّ القلب مكانه الجوف، ولكنَّ ذكر العلي العزيز (في جوفه) يذكر المفسرون اسبابًا متعددة لذلك، وربما الاسباب كافة مجتمعة هي المقصودة –والله اعلم- ومنهم ابن الاثير اذ يقول: " فقد علم ان القلب لا يكون الا في الجوف والتمثيل يصح بقوله: (ما جعل الله لرجلٍ من قلبين) (ابن الاثير، ١٩٨٤: ٣٩٧/٢) فما السبب بالزيادة؟ يجيب ابن الاثير بتحدث الآية عن ظهار الزوجة وتبني المملوك، وفي كل منهما متناقضان لا يجتمعان والجمع بين الزوجية والامومة، وبين العبودية والنبوة

في حالة واحدة كالجمع بين القلبين في الجوف، وهذا تعظيم لما قالوه وانكار لـه" (ابن الاثير،١٩٨٤: ٣٩٧/٢). ذلك إنَّ الاستدلال بالسُنن الالهية من "اقوى انواع الاستدلال، فإن السُنن الالهية هي قانون ثابت لا يُختـرق إلاّ بإذنـه – جلّ وعلا – وان السنن الالهية نوعان ديني شرعية، وكونية طبيعية ..."(مجلة واسط للعلوم الانسانية والاجتماعية، ٢٠٢٤: ١) ويظهر – والله اعلم- أن الآية الكريمة قد جمعت بين النوعين آنفي الذكر.

وفي الختام .. لا ندعي كمال البحث فإنَّ الكمال لله وحده، فإن وفقنا فبتوفيق من الله، وان كانت الثانية فحسبنا انا حاولنا .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٥. نتائج البحث:

١- ظهر ان اهمية الضمائر في اللغة تتجلى عبر اهميتها في القرآن الكريم، فهو يعج بالضمائر ومعانيها الكبيرة والمهمة.

٢- لوحظ انزياح الضمائر في القرآن الكريم جاء لأغراض بلاغية غاية في الدقة وعمق التعبير، فهي تمثل جزءًا من الاعجاز القرآني.

٣- تتجلى الشعرية بأروع صورها في الكتاب السماوي ومن اوجهها عدول الضمائر فيه.

٤- يتضح ان نظرية الانزياح التي يتبناها الادب الغربي جذورها ضاربة في القرآن الكريم وكان يُعبّر عنه بالعدول، فهو ليست فكرة جديدة ابتدعها الادب الغربي.

٥- يبدو ان الموضوع يستحق دراسة اشمل وادق لكل الضمائر في القرآن الكريم وعدولها والاغراض البلاغية وراء ذلك.

قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**

١- الاسلوبية والاسلوب، د.عبد السلام المسدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

٢- الايضاح في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني، دار احياء العلوم، بيروت، ١٩٩٨م.

٣- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: ابـي الفضـل ابـراهيم، القـاهرة، ١٩٥٦م.

٤- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.

٥- دلائل الاعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، حققه: محمد رضوان الداية، ط٢، مكتبة سعد الدين، القاهرة، د.ت.

٦- رؤية في العدول عن النمطية في التعبير الادبي، د. عبد الموجود متولي بهنس، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٧- في الشعرية العربية، قراءة جديدة في نظرية قديمة، طرّاد الكبيسي.

٨- الكشاف عن حقائق التنزيل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٨م.

٩- لسان العرب، ابن منظور، اعداد وتصنيف يوسف الخياط، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.

١٠- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، ابو الفتح ضياء الدين بن الاثير (ت٦٣٧هـ)، خرّجه: د. احمد الحوضي، د. بروي طبانة، ط١، منشورات دار الرفاعي، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٨٤م.

١١- المفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الاصول والمنهج والمفاهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤

١٢- مفتاح العلوم، ابو يعقوب يوسف السكاكي (ت٦٢٦هـ)، حققه: د. عبد الحميد الهنداوي، دار لكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

- الدوريات:

١٣- مجلة جامعة (ام القرى) لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج٤٤، الرياض، ٤٠/٤، ١٤٢٨هـ.

١٤- مجلة واسط للعلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد (٢٠)، رقم (٥٦) للسنة ٢٠٢٤.